الإعجاز القــرآني النشأة، التطور، التحدي ومراحله

إعداد :
الدكتور/ محمد آدم محمد البين السلامي
محاضر بجامعة الملك فيصل / تشاد

مستخلص:

لا شك أن القران الكريم قد أبهر الناس بأسلوبه الفذ فلا هو بالشعر ولا هو بالرجزو لا هو بالنثر العادي، فله أسلوب رفيع تخشع القلوب عند سماعة، وأنه تحدى الفصحاء با قصر سورة منه وأن أطول سورة منه كانت وحدتها في كثرتها، فهو معجز في اخباره عن الغيبات ومعجز في اظهاره خبايا النفوس، ومن إعجازه اخباره أنه محفوظ عن التغيير والتبديل وأنه برأ النبي – أن يكون قد تقوله أو انه حقق مخطوطة من أساطير الأولين أو علمه إياه بشر، وظل يتحداهم أن يأتوا بمثله أو بحديث من مثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة أيا كانت من الطوال أو من القصار فالأمر سيان، ثم أخبرهم بأنهم لا يمكنهم الإتيان بمثله أبداً ولو تعاونوا مع الجن، وأنه لا يمكن أن يفترى أو يتقول على الله ومع أنه لم يسد على خصومه باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه وأزال كل عقبة وتدرج بهم ودعاهم أفرادا وجماعات، وأباح لهم الاستعانة بمن شاءوا حتى الجن وهو حينما يتحدى لا يقف منتظرا أن يفعلوا بل يحسم الأمر حسما قاطعا هو تحد آخر، بأنهم لن يستطيعوا الاتيان بمثله وهو حينما يتحدى لا يتحدى تحدي الوجل الخائف من بطلان تحديه بل تحدي المستعلي الواثق من عجز خصومه ويستفزهم ويتوعدهم بالنار إن أصروا على عنادهم، وانقطع الوحي والتحدي مازال قائما لم ينقطع ولم ينته أمده، لا لعصر دون عصر ولا لأمة دون أمة!

فلما أكتمل التحدي وتسديد الأهداف وانتظرهم مدة كافية قال:﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ٣٧ ﴾ يونس:٣٧

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقا وَعَدْلا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١١٥ ﴾ الأنعام: ١١٥ ، أي صدقا في أخباره وعدلا في أحكامه فكله حق وصدق وعدل وهدىً، ليس فيه كذب ولا افتراء وإن معرفة إعجازه لتزيد لإيمان إلا أن الله صرف قوما عن معرفته والبحث عن كوامنه وعجائبه ولا يلقها إلا الصابرون وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

عجز العادون عن حصر وجوه اعجاز القرآن الكريم لأنه حصرها هو أيضا معجز، فكان جماله في تعدد أساليبه وتنوع خصائصه فهو يعلوا ولا يعلى عليه ، فمن خصائصه الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب فهو يخاطب العامة والخاصة وبكلام واضح وعال لا عمل المرء من طرحه " لا يعلوا عن افهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة " ففي القصص بلغ حد الكمال ودرجة الحيرة بأوهو يراعى، وكونه يراعي في الألفاظ معانيها فهذا قمة البلاغة ومنتهى الروعة، ومن خصائصه أنه يحفظ فى الصدور ويدون فى السطور ويسجل بحبس الصوت وأنه متصل السنود لايمسه إلا المطهرون ولا ينسب إلا إلى الله يحرم تفسيره بمجرد الرأى ولا يروى بالمعنى وانه مهيمن على على الكتب –السابقة وأن قارئه لا يمل منه ، وأن معانيه قد صفت وانجلت حتى صارت وحدة موضوعية متماسكة محكمة السرد قوية الاتصال.

وأنه يعبر عن الشئ بعدة أساليب، وأنه حفظ اللغة العربية النقية الخالية من التعقيد اللفظي والمعنوي،فهو معجز بفصاحة ألفاظه وشرف معانيه وترتيب سورة وأنه قد يكرر ألفاظنا إما لزيادة في التنبيه أو للتعظيم أو لتعدد المتعلق اولتكرير حرف الإضراب أو لطول العهود والكلام إذا تكرر تقرر.

Abstract:

The Holy Quran is the most effective weapon of the nation and a sea of knowledge. If she reflect upon it and ponder it carefully, it will prevent her from intruding on the tables of the ignoble. The origins of knowledge are found in its allusions and acts of worship. Our righteous predecessors are the best witnesses. It is a book of faith, a register of ethics, and a record of transactions. It does not conflict with evolution, nor does it clash with correct scientific discoveries and facts, nor with the laws of nature and the laws of the universe. All of its obligations are applicable, as attested by the enemies among the people of other religions.

Even the fair-minded among its wise enemies acknowledged its magical eloquence, its wonderful style, and its lack of contradiction and dissonance. They declared it the easiest book to memorize and the most influential in daily life. It is a unique book and a cohesive unit, unparalleled in its power of persuasion, eloquence of style, splendor of creativity, and its ability to keep pace with new developments. It remains as fresh and tender as it was revealed. Its miraculous nature is limitless and its challenge endless. Everyone who delves deeply into its study has grasped and submitted.

In the scientific miracle, it has baffled scientists because its precise references accept the correct, established scientific facts. When it refers to these facts, it addresses them with extreme precision. This is a miracle in scientific facts, a miracle in the choice of words, and a precision of reference.

Therefore, the Holy Quran is miraculous in its language, style, and composition. It is miraculous in its legislation, laws, and rulings, and in its ability to outline a path for human life. It is miraculous in its consistency with life and its harmony with the peaceful nature. It is miraculous in its revelation of the unseen, past, present, and future. These and other things are the clearest evidence that it is from God, that it is a path to life, and that it is a complete religion.

The miraculous is one of the most precise sciences of the Quran. It encompasses interpretation in its various forms, exegesis, contemplation of its concepts, aims, obligations, means, and fruits, as well as reflection, understanding, and contemplation of its synonyms, differences, formulations, and connotations.

If you wish, say that the miraculous is the fruit of knowledge and the core of faith. Through it, it is known that the Quran clarifies everything and is a sign of the truthfulness of the Prophet (peace and blessings be upon him).

You can now say with full mouth that the miraculous nature of the Quran and its characteristics indicate that the Holy Quran is from God and nothing else. From Him it began and to Him it will return, and that the Prophet (peace and blessings be upon him) conveyed it with truth and sincerity.

أ- **مقدمة** : وتشمل عظمة القرآن الكريم وتعدد أساليبه وبلاغته المتمثلة في جزالة ألفاظه التي وصلت الى حد الإعجاز.

ب-ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : في التعريفات والمقصود وفيه ثلاثة مطالب

1- المطلب الأول : تعريف الإعجاز

2- المطلب الثاني : ما المقصود من الإعجاز

3- المطلب الثالث : النشأة والمراحل

المبحث الثاني : في المؤلفات وفيه مطلبان:

1- المطلب الأول : المؤلفات العامة

2- المطلب الثاني المؤلفات الخاصة

المبحث الثالث : في التحدي ومراحله وفيه ثلاثة مطالب :

1- المطلب الأول : القول بالصرفة وإبطاله

2- المطلب الثاني : التحدي

3- المطلب الثالث : مراحل التحدي

الخاتمة: مستخلص البحث

مقدمــة البحث

إن المتكلم عن إعجاز القرآن الكريم ليحتار قبل أن يختار لأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فلا يدري المرء من أي الوجوه يتناوله لأنه لم يترك شاردة ولا واردة إلا وأحاطها خُبراً فهو دائماً يهدي للتي هي أقوم، لذا اختلف الباحثون في وجوه إعجازه وتحيروا لأنهم عجزوا عن حصرها أوعدها فهو معجز في نظمه الفريد فلا هو بالشعر المقفى ولا بالنثر العائم، وهو معجز في جزالة اللفظ وحسن المعنى، معجز في إخباره عن المغيبات وسلامته من الاختلاف والتناقض.

وإن أقصر سورة فيه تتحدى العرب العرباء كما أن أطول سورة فيه كانت وحدتها في كثرتها، يتناول الحقائق العلمية فيندهش العلماء برؤية الآيات في الآفاق وفي أنفسهم فيتبين لهم أنه الحق فتبهرهم دقائق حقائق تشيب من هولها نواصي الولدان وتقشعر لدقتها الأبدان، فهو فعلا مأدبة الله تعالى ولا تنقضي عجائبه! ومن أراد العلم فليثوره فإن فيه علم الأولين والآخرين.

فهو شفاء لما في الصدور وحكم عدل في مشتبهات الأمور بهرت بلاغته العقول وتضافر إيجازه وإعجازه في تقسيم وسيم وصياغة بديعة وصناعة رفيعة تجعل الغائب كأنه شاهد عيان تكلم عنه أعداؤه من المستشرقين فأنصفوه وما بلغوا معشاره ومنهم من حاول الطعن فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير وقالوا: إن الأربعة عشر قرنا مرت عليه ولم تستطع أن تجفف من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عصرها بالوجود أمس[1]

فهو أكثر الكتب قراءة وأيسرها حفظاً وأشدها أثرا في الحياة اليومية فليس طويلا كالعهد القديم.

-أسلوبه رفيع – تخشع القلوب عند سماعه- وهو كتاب فريد ووحدة متماسكة[2]

ومن إعجازه إقبال الناس عليه حفظا وتلاوة وفهما وتفهما ومدارسة دون كلل ولا ملل ولا تزال المسيرة مستمرة، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة ولا يوجد منها شيء، بل قلة قليلة لا تذكر مقابل حفاظ القرآن الكريم، بل أهل الإنجيل أكثرهم لا يقدرون على تلاوته مجرد تلاوة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ البقرة : ٧٨

ويقول الفيلسوف الفرنسي (ألكس لوازرون) في كتابه- حياة محمد- إن محمداً خلف للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الاخلاق وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية التي كشفت حديثاً أو المخترعات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية.

وقال آخر: (إن علوية القرآن في حقيقته العالية فهو حافل بالعدل والإخلاص والدعوة التي بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة[3].

[1] قاله: لمستشرق (ليون)

[2] قاله : المستشرق جمي متشيز نقلا عن : في رحاب التفسير لعبد الحميدكشك ص27

[3] المصدر نفسه ص30

إخباره عنه بأنه معجز وأنه محفوظ من التغيير والتبديل إعجاز، وكونه يخبر بأن الإنس والجن لو تعاونوا أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله إعجاز. وكونه يتكلم في أشياء قبل وقوعها وأقوال بحضور قائليها فتقع إعجاز بأعلى صوره مثل﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ تُسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة ثم قالوه.

وسيهزم الجمع ويولون الدبر﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَنكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *﴾ آل عمران

لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً....

وكونه يتكلم عن أهوال القيامة بصيغة الماضي إذ تبرأ الذين اتبعوا، وإذ قال الله يعسى ابن مريم أأنت قلت للناس... قال قائل منهم إني كان لي قرين، (ورءا المجرمون النار) (ولو ترى إذ وقفوا ..) (وعرضوا على ربك صفاً...) كل هذا من إعجازه.

ففي بلاغة التعبير معجزات وفي أساليب ترتيبه معجزات وفي تشريعاته الخالدة معجزات وفي ترتيب آياته معجزات وفي تناوله للحقائق النفسية والكونية معجزات وفي تأثيره في نفوس سامعيه معجزات وفي تصورها في النفوس إعجاز. وفي براعة استهلاله بالأحرف المقطعة إعجاز. ويكفي أن العجز عن حصر وجوه الإعجاز إعجاز وهو لا تنقضي عجائبه. خطاب للعامة وخطاب للخاصة و إمتاع العقل و إقناع العاطفة ببيان وإعجاز خال من الكلمات المقحمة والحروف الزائدة وهذا لا يوجد في غير القرآن الكريم وهو تحد للقدرة البشرية[4]

مع الكثرة والوحدة وصنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد فتراه لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلا على هدف واحد من المعاني، وتراه ينتقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى، بين إنشاء وإخبار وإظهار و إضمار و إسمية وفعلية ومضي وحضور واستقبال، وتكلم وغيبة وخطاب إلى غير ذلك من طرق الأداء مع أن

[4]التوسع انظر: النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ص148 مع تحقيق عبد الحميد ، مقدمة مراصد المطالع للمحقق الدكتورة عبد المحسن بن عبد العزيز العسكري ص7 (2) اعجاز القرآن للباقلاني ص183

نزوله مفرقا على حسب الوقائع والدواعي على تباعد زماني مما لا يسمح عادة بالتواصل والترابط وهو مظنة التفكك والمفارقة والتفاوت.

فبلاغة القرآن المتمثلة في جزالة ألفاظه وحسن معانيه وحلو نظمه الذي جاء على وصف مخصوص خارج عن المقصود من نظام جميع كلامهم من قيل! إنه خرق العادة بفصاحته، وجرى على ذلك مجرى قلب العصاحية فإنه بديع النظم عجيب التأليف منتاه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[5] فإن بلاغته قد وصلت إلى حد الإعجاز فمن ذلك أنه يورد الكلمة الواحدة وبلفظها لعدة معان واللفظ هو ، فمثلاً (اتخذت جاءت) ولها أكثر من 13 معنى تقريباً:

1. جاء بمعنى (اختار واصطفى فقال) فقال واتخذ الله إبراهيم خليلا
2. جاءت بمعنى (أكرم) فقال﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران ١٤٢
3. جاءت بمعنى(صاغ) فقال﴿﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيا حُوتَهُمَا فاتخذ سبيله في البحر سربا) الكهف﴾ الأعراف: ١٤٨
4. جاءت بمعنى (سلك) قال تعالى﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيا حُوتَهُمَا فاتخذ سبيله في البحر سربا) الكهف
5. جاءت بمعنى (سمى) فقال﴿ واتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ .....﴾ التوبة: ٣١
6. وجاءت بمعنى (نسج) فقال ﴿كَمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَتْ بَيْنا ﴾ العنكبوت: ٤١
7. جاءت بمعنى (عبد) فقال﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ الأعراف: ١٥٢، ﴿.....اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الأعراف:١٤٨
8. وجاءت بمعنى (جعل) فقال قال تعالى (الخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله فَلَهُمْ عَذَابٌ فهين) المجادلة
9. وجاءت بمعنى (بنى) فقال﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ....﴾ التوبة: ١٠٧

[5] اعجاز القرآن للباقلاني ص183

10. وجاءت بمعنى (رضى) فقال ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وكيلا﴾ المزمل:٩

11. وجاءت بمعنى (عصر) فقال ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل:٦٧

12. وجاءت بمعنى (أرخى) فقال ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ مريم: ١٧

13. وجاءت بمعنى (شاهد عقد) فقال ﴿ اطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[6] مريم:٧٨

تعريف الإعجاز

إن الإعجاز من حيث اللغة: هو مشتق من العجز والضعف وعدم القدرة فهو إظهار عجز الغير لأن أعجزه الشيء وعجز عنه أي فاته وسبقه وقصّر عنه ومعناه الواسع: هو ما يدفع الخصم إلى العجز عن التحدي.

أو مشتق من عجز: عن الشيء عجزاً فهو عاجز أي ضعيف، وأعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.

والعجز إذاً: هو الفوت والسبق، عن طلبه وإدراكه. والمعجزة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة، وزيدت الهاء فيها للمبالغة في الخبر كعلامة وفهامة، فالمعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة.

والمعجز في الحقيقة هو فاعل العجز في غيره وهو الله جل في علاه و إنما قيل لآيات الرسل معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتها بمثلها، والإعجاز في الكلام أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق.

وأما الإعجاز من حيث الإصطلاح: فإن تعريفه مركبا (إعجاز القرآن) كان على التالي:

1. إعجاز القرآن: هو إثبات القرآن الكريم عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به

[6] انظر: الاسلوب القرآني رسالة دكتوراه للقاسم محمود زكريا

2. أو: هو ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته

وعليه: فإعجاز القرآن يقصد به إعجاز للناس في عدم قدرتهم على الإتيان بمثله فهو معجز برمته؛ سواء الإعجاز اللغوي أو التشريعي أو إعجاز الهداية أو الإعجاز الغيبي أو الإعجاز العلمي كما يأتي تبيانه في (وجوه الإعجاز) وهي التي عجز الناس عن حصرها[7].

ما المقصود من الإعجاز؟

ينبغي على الدارس أن يعلم أن الإعجاز ليس مقصوداً بل المقصود لازمة وهو الإظهار أن هذا الكتاب حق وأن الرسول الذي جاء به هو رسول صدق، فيلزمهم إتباعه، وهكذا الشأن السائر في كل معجزة. فمن العلماء من حصر الإعجاز في ثلاث نواحي وهي: 1- الإعجاز اللغوي 2- الإعجاز العلمي 3- الإعجاز الإصلاحي الاجتماعي، وجعل البقية وجوها لا تخرج عن هذه ثم ذكر ستة أسئلة في الإعجاز اللغوي وأجاب عنها بكل إسهاب ووضوح.

1- هل من أحد يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية؟

2- هل من أحد قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه؟

3- أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ولم يعلم أن سكوتهم كان عجزا؟

4- أم أن أحداً قد علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم وأن أسلوبه كان من أسباب الإعجاز؟

5- أم أنه كان معجزا بيانه لسائر الناس ولا يزال؟!

6- أم هو يؤمن بهذا كله ولكنه لا يدري: ما أسراره وما أسبابه؟

ثم رد عن هذا التساؤل بالترتيب[8]

وقد ورد لفظ (الإعجاز) في القرآن الكريم للمغالبة وعدم القدرة والقوة وإظهار العجز و للفوت ومن ذلك قال تعالى﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن تُعْجِزَهُ هربا ﴾ الجن:١٢

[7] لسان العرب مادة عجز ومدخل الدراسات القرآنية للدكتور السائح على حسين ومناهل العرفان للزرقاني

[8] النبأ العظيم لمحمود عبد الله دارز ص100 باختصار

وقال تعالى ﴿.....وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ فاطر﴾ فاطر:٤٤

(ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون)

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءايَتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَبُ الْجَحِيمِ﴾ الحج:٥١

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ نِي ءايْتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مَن رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ سبأ:٥

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَبِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾سبأ:٣٨

قال تعالى ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ .....﴾ الأحقاف: ٣٢

قال تعالى ﴿..... وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ .....﴾ التوبة: ٢

قال تعالى ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣

قال تعالى ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَاتٌ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الأنعام:١٣٤

قال تعالى ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ النحل:٤٦

وغير ذلك من الآيات فهو: معجز في أسلوبه ونظمه ووقعه. ومعجز في إرضائه للعقل والعاطفة وفي جودة السبك وإحكام السرد، ومعجز في تعدد الأساليب وإتحاد المعنى وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى، وهو معجز في تصوير المعاني وإخباره عن المغيبات وفي معارفه ووفائه بحاجيات البشر وأنه لا يصادم الحقائق العلمية جامع بين الإجمال والبيان (لا يعلو عن أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة)مع القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى بنظم رائع ولفظ جامع ومعنى ناصع وكل ذلك وغيره إعجاز.

جـ – نشأة علم الإعجاز ومراحله وأشهر مسائله ومباحثه وثمرة دراسته

1. أما عن النشأة: فأول ما نشأ هذا الفن كان في بداية الدولة العباسية لما انبهر الناس بعلم الفلسفة فكان علماء البراهمة في الهند يعتقدون أن البشر ليس بمقدورهم محاكاة (الفيداء) كتاب مقدس عندهم مكون من أربعة أسفار منذ ثلاثة آلاف قبل الميلاد ويقولون إن براهما صرفهم عن الإتيان بمثله فراجت

هذه الفكرة عند أهل الكلام، وتبناها المعتزلي إبراهيم النظام 224هـ فانبري لفيف من العلماء إلى دحض هذه الفرية وألفوا في الرد عليها كالجاحظ والواسطى والرماني والخطابي و الباقلاني وغيرهم.

2. وأما عن المراحل: فقد كان القول في الإعجاز غير مستقل وإنما في بطون المؤلفات يتكلم العلماء في جانب فقط كالإمام الفراء في(معاني القرآن) وأبى عبيد معمر بن المثنى في (إعجاز القرآن) وابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن) وابن المعتز في (البديع) ثم تطور الأمر حتى صار التأليف مستقلاً كما تراه في (المؤلفات)
3. وأما عن أشهر مسائله ومباحثه: فهي ثلاثة؛ 1- وجه الإعجاز 2- القدر المعجز 3- القول بالصرفة.
4. وأما عن ثمرة (دارسته) فكثيرة ويمكن إجمالها في ثلاث نقاط:

أ. معرفة أن الإعجاز قد تحقق ولا يزال وهذا مجمع عليه إلا من شذ

ب. أن معرفته تشعل جذوة في إيمان المسلم وأن الإعجاز قائم في كل زمان ومكان.

ت. يستدل بها أن القرآن من عند الله بلا شك ولا ريب[9]

د- المؤلفات في إعجاز القرآن الكريم

لقد ألف العلماء في إعجاز القرآن بأنواعه قديما وحديثاً كتباً كثيرة؛ منها ما هو خاص بالنظم والتأليف، ومنها ما هو خاص بالإعجاز العلمي ومنها ما هو خاص بالتحدي، ومنها ما هو خاص بالأسلوب ومبتكرات القرآن.

ومن أهم المؤلفات:

1. (نظم القرآن) أبى بكر بن عبد الله داوود السجستاني ت 316هـ
2. (نظم القرآن) لأبي زيد البلخي ت 322هـ
3. (نظم القرآن) لأبي بكر أحمد بن علي المعروف بابن الإخشيدى المعتزلي ت 326هـ
4. (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي ت 304هـ

هذا وقد نشط التأليف في القرن الرابع في إعجاز القرآن الكريم وأبرزها ثلاث كتب:

[9] انظر إعجاز القرآن عند شيخ الاسلام ابن تيمية تأليف محمود بن العزيز العواجي ص96-111 بتصرف

1. **(إعجاز القرآن)** لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي تـ384هـ وكان اماماً في العربية علامة في الأدب عالي الرتبة في النحو والكلام والمنطق دينه ثخين وعقله رصين كان بصيرا بالمقالات مستخرجاً للعوائص وموضحاً للمشكل، به دين ويقين وفصاحة وفقه ونزاهة وعفة ونظافة.

تناول في كتابه، بيان وجوه إعجاز القرآن وقال: إنها تظهر في سبع جهات:

1- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة 2- التحدي للكافة 3- الصرفة 4- البلاغة 5- الأخبار الهادفة عن الأمور المستقبلة 6- نقض العادة 7- قياسه بكل معجزة.

ثم ختم كتابه بان التحدي يشمل العرب والمولدين فإذا عجز العرب، مع أنهم يقيمون الأوزان بالطبع والبلاغة بالفطنة وهم أقدر، فإن عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز، ثم قرر نفى السجع من القرآن الكريم وسماه (فواصل) لأن الإسجاع عيب والفواصل بلاغة، ولأن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الإسجاع فالمعاني تابعة لها، وكان يقول بالصرفة أي أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن الكريم وهو خروج عن العادة.

2. **(إعجاز القرآن)** لأبي سليمان: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي تـ 388هـ علم من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع هـ ظهرت غزارة علمه وعمق فكره ودقة استنباطاته وروعة بيانه في كتاباته القيمة مثل كتاب: (غريب الحديث) و(معالم السنن) في شرح سنن أبي داوود (وأعلام السنن) في شرح البخاري وغيرها.

وأما كتابه (إعجاز القرآن) فقد صدره بعدة تساؤلات في تعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن الكريم ثم ذكر الأقوال التي قيلت في وجوه الإعجاز والتحدي، واسجن الأقوال التي قيلت في الصرفة أي صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدورا عليها، ثم ذكر القول بأن الإعجاز هو فيما تضمنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، فقال: هذا وإن كان من أنواع الإعجاز، لكنه ليس بالأمر الموجود في كل سورة، بينما القرآن سور كلها معجزة لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها.

وقد ذكر وجوها من الإعجاز التي ذكرها من كان قبله ثم قرر أن هناك وجها لا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، ألا وهو: صنيعة القرآن بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنه يقرع السمع ويخلص إلى القلب فيحدث

روعة ومهابة وينشرح له الصدر، ثم ختم كتابة بنماذج تاريخية من رجال العرب وفتاكها لما سمعوا القرآن تحولوا عن رأيهم الأول فد خلوا في دينه وصارت عداواتهم مولاة وكفرهم إيماناً.

3. **(إعجاز القرآن)** لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد جعفر الباقلاني ت 403هـ وكان قوى الحجة وسرعة البديهة وطلاقة اللسان وغزارة البيان، أو قف حياته على أمرين؛ التدريس والتأليف فقد تعلم على يديه خلق كثير منهم القاضي عبد الوهاب ت422هـ أبو ذر الهروي ت434هـ على بن عيسى السكري ت 413هـ وابن أنباري ت 448هـ.

وألف ما لا يقل عن (55) كتاباً: منها (التبصرة) (البيان عن فرائض الدين وشرائع الإسلام) المقنع في أصول الفقه وأما كتابه (إعجاز القرآن)

فهو أول كتبه نشراً وأشهرها ذكرا وأعظم كتاب ألف في الإعجاز في هذا النوع، وكلام الباقلاني مداره كله في كتابه هو أن الإعجاز دليل على صدق نبوه محمد صلى الله عليه وسلم، فتكلم في مقدمته عن أهمية دراسة الإعجاز، وعن موقف المؤلفين منه، ومن يدرك إعجاز القرآن ثم أفاض وأطال النفس في أن القرآن هو معجزة النبي فالنبوة مبنية على أن معجزتها القرآن الكريم ثم تكلم في بيان الدلالة على أن القرآن معجز ثم ذكر ثبوت نقل القرآن وتكلم عن التحدي ومراحله وثبوته وأبطل القول بالصرفة من عدة وجوه وذكر وجوه الإعجاز[10]

ومن المؤلفات التي تناولت الإعجاز:

1- البرهان في علوم القرآن الكريم (للزركشي).

2- (دلائل الإعجاز) للجرجاني .

3- (معترك الأقران) لجلال الدين السيوطي .

4- (الاحتجاج لنظم القرآن) للجاحظ

5- (مشكل القرآن) لإبن قتيبة

6- (النكت في إعجاز القرآن) للرماني

[10] من أراد المزيد فلينظر إلى اعجاز القرآن الباقلاني (مقدمة) السيد أحمد صفر أحمد ص..95/9

7- (مناهل العرفان) للزرقاني

8- (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) للدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح

9- (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعي

10- (في دلائل الإعجاز) لفخر الدين الرازي

11- (وفي إعجاز القرآن) دراسة تحليلية لسورة الأنفال للدكتور أحمد المختار البرزة وألف فيه: القاضي عياض والسكاكي وغيرهم، وكثير من أهل العلم من المفسرين تناولوه متناثرا في بطون كتبهم ما بين مقل ومكثر وإن لم يخصوه بمؤلف، ومن أنواع الإعجاز تناسق سور وآياته، وقد ألف الإمام البقاعي كتابه الكافي الشافي:

12- (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وجاء لإمام السيوطي فألف

13- (تناسق الدرر في تناسب السور) وقد ألف بعض العلماء في الأشباه والنظائر أقصد المتشابهات من الآيات ثم قاموا بذكر الفوارق وأوجه الاختلاف ووجهوها مع ذكر الحكمة ولعمرى هو من الإعجاز! مثل:

14- (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري

15- (ملاك التأويل) للعلامة الغرناطي، وله 10 البرهان في ترتيب سور القرآن

16- البرهان في ترتيب سور القرآن

17- (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع) لجلال الدين السيوطي

18- (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) لأبى الفضل الغماري

19- ((غرائب التفسير وعجائب التأويل))لمحمود بن حمزة الكرماني شيخ الإمام الزمخشري.

القول بالصرفة وإبطاله :

الصرفة من الصرف: وهو رد الشيء عن وجهه ومنه(ثم انصرفوا) أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه وصرفت الصبيان قلبتهم والصرف صرف أي إنسانا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك[11]

واصطلح الناس عليها في علوم القرآن بكسر الصاد (الصِّرفة) وللناس في الصرفة قولان؛

أ- الجمهور: أن القول بالصرفة باطل من وجوه لأننا إن قلنا بها فما الفائدة من التحدي مع وقوع الصرفة عنه؟ فلا فائدة من بيان عظمة بلاغة القرآن وفصاحته فالدواعي إلى المعارضة حاصلة ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ولو كانوا قادرين لعارضوه.

ب- بعض علماء الطوائف كإبراهيم النظام والإمام ابن حزم والشريف المرتضى من الشيعة ومن قلدهم من علماء الكلام فهؤلاء قالوا بأن القول بالصرفة هو حقيقة الإعجاز، فإن ترك العرب للمعارضة مع توافر الدواعي دل على أن الله صرفهم عن المعارضة كما صرف اليهود عن تمنى الموت ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوهُ أَبَدَا ﴾ البقرة ٩٥ ﴿ وَلَا يَتَمَنَّونَهُ أَبَدَا ﴾ [12] الجمعة: ٧، وسيأتي القول الراجح ووجه الترجيح.

أما القول بالصرفة: أي أن الله تحداهم بان صرفهم عن معارضته والصرفة أربعة أنواع:

أ. أنهم كان بإمكانهم معارضته ولكن الله صرف قوتهم، كما صرف نبى الله زكريا عن الكلام أي أن شيئا عطل مواهبهم فلا قبل بهم به

ب. أو أنهم كان بإمكانهم معارضته ولكن همهم ضعفت لأن الله منعهم بالصرفة فضعفت البواعث والدوافع

ج. أو أنهم عارضوه فعلاً ولكن لم تنقل المعارضة

د. أو أنهم يمكنهم معارضته ولكنه لم يبازهم صراحة فأصابهم فتور الهمة والشعور بالخمول.

وهذا كله تخرص وباطل فإنه لا يلزم معرفة الفصاحة الإتيان. فالتحدي متواتر والعجز أيضاً متواتر ولا تزال المهة قائمة وأول من قال بالصرفة على عمومها هو ذلكم المعتزلي إبراهيم النظام 204هـ[13]والحامل على القول بالصرفة: هو تعليل العجزات أي أن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم

[11] لسان العرب لابن منظور مادة (صرف)
[12] للمزيد أنظر: إعجاز القرآن الكريم لشيخنا البروفسيور محمد العواجي ص108
[13] إعجاز القرآن للباقلاني ص21-29 بتصرف

الداعي[14] فهم لم يحالوا أصلاً وعدم محاولتهم أنهم أدركوا عجزهم وعدم استطاعتهم، وإلا فهم قوم خصمون وقوم لدا ومع ذلك تحيروا، قالوا: ﴿ ..... وَمَا سَمِعنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلأَوَّلِينَ ٣٦﴾ القصص:٣٦

وقالوا:﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيهِ ٱلذِّكرُ إِنَّكَ لَمَجنُونٞ ٦ ﴾ الحجر:٦

وقالوا:﴿ ..... أَفَتَأتُونَ ٱلسِّحرَ وَأَنتُم تُبصِرُونَ ٣﴾ الأنبياء:٣

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجنُونِۭ ٣٦ ﴾ الصافات:٣٦

﴿ .....وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسحُورًا ٨﴾ الفرقان:٨

والآيات في هذا الصدد كثيرة تدل على الحيرة والعجز حتى أنهم طالبوا بالإتيان بالملائكة وأن يأتي بالله والملائكة قبيلا، فهذا أدل دليل على العجز ثم هم لم يكتفوا بالسكوت الذي يدل على الرضى أو الإذعان.... بل صرحوا إشادة ومدحا فقد قال الوليد بن المغيرة وهو من هو فيهم حتى أنهم رشحوه للرسالة لأنه أحد رجلي القريتين وزعيم مكة ﴿ وَقَالُواْ لَولَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلقُرءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلقَريَتَينِ عَظِيمٖ ٣١ ﴾ الزخرف:٣١

فقد قال هذا العظيم (والله لقد سمعت من محمد آنفا ما هو من كلام الإنس والجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق وإنه يعلوا وما يعلى عليه...) وهو بهذا فقد أدرك وجوها من الإعجاز، فلو استطاعوا معارضته لما طلبوا أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وعنب أو يسقط السماء كسفاً أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء فينزل عليهم كتاباً يقرؤونه أو احتجوا ببشرية الرسل في رد كلام الله، ثم عجزوا

﴿ وَأَلقَواْ إِلَى ٱللَّهِ يَومَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ..... ﴾ النحل:٨٧

وشأن الإعجاز عجيب ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيءٍ أَكبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَينِي وَبَينَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلقُرءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ.....﴾ الأنعام:١٩

فلو كان القرآن في المستوى الذي تستطيعه عبقريات القرائح للزم حدوث المعارضة وعلى هذا الأساس تحدي الله الثقلين بالقرآن ومن ثم يعتور القول بالصرفة الخطأ من جانبيه[15]

[14] التحرير والتنوير جـ1، ص103 بتصرف

[15] انظر: في اعجاز القرآن للدكتور أحمد مختار البرزة، ص9

وقد شهد عقلاؤهم بأنه أرفع من كلام البشر، فها هو الوليد بن المغيرة المخزومي مرة أخرى لما سمع قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ النحل: ٩٠

قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسلفه لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر، ولما سمع أعرابي قوله تعالى:﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ .....﴾ الحجر:٩٤

خر ساجداً وقال: سجدت لفصاحته وسمع أعرابي رجلاً آخر يقرأ ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ..... ﴾يوسف: ٨٠

قال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وإن فيه من أفانين البلاغة ما أعجز بلغاء العرب ومن الابتكارات والنفائس ما أبهرهم حيث قال﴿ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ .....٢٦ ﴾ الأنعام:٢٦

وفي التشبيه والاستعارة ﴿ ..... وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ..... ﴾ مريم: ٤

قال تعالى ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ..... ﴾ الإسراء: ٢٤

قال تعالى ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ٣٧ ﴾ يس:٣٧

قال تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي.....﴾ هود:٤٤ (16)

وقال في الترغيب﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖۚ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ١٧ ﴾ السجدة:١٧

و قال تعالى ﴿... يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ..... ﴾ الزخرف: ٧١

وفي الترهيب قال تعالى ﴿ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ ..... ﴾ الإسراء: ٦٨

قال تعالى ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ ﴾الملك:١٦

قال تعالى ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ١٥ ﴾ إبراهيم: ١٥

﴿.....وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ١٧ ﴾ إبراهيم:١٧

وقال في الوعظ ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ٢٠٥ ﴾ الشعراء:٢٠٥

[16] انظر: كتاب الأغاني وطبقات فحول الشعراء، واعجاز القرآن للباقلاني ص156

إلى غير ذلك مما لا يبلغه وهم البشر.

فإن القرآن الكريم أصل العلوم بلا منازع: عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله[17] .

وهذا الإعجاز له وجوه، منها ما هو لغوي، وما هو تشريعي، وما هو إعجاز هداية وما هو غيبي، وما هو علمي[18] وكلها دالة على أن القرآن ما كان مفترى من دون وهو يشهد بأن محمدا صلى الله عليه وسلم مبلغ فقط فأسباب نزول﴿ وَٱصبِر نَفسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِٱلغَدَوٰةِ وَٱلعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُۥ وَلَا تَعدُ عَينَاكَ عَنهُم تُرِيدُ زِينَةَ ٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَلَا تُطِع مَن أَغفَلنَا قَلبَهُۥ عَن ذِكرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾الكهف:٢٨

وَلَا تَطرُدِ ٱلَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِٱلغَدَوٰةِ وَٱلعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُۥ مَا عَلَيكَ مِن حِسَابِهِم مِّن شَيءٖ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيهِم مِّن شَيءٖ فَتَطرُدَهُم فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ الأنعام: ٥٢

وقصة الأسرى في الأنفال وعتاب ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ..... ٤٣﴾ التوبة:٤٣

وحادثة الإفك وفترة الوحي، وقصة زواجه من زينب وإبطال التبني، وقصة تحريم ما أحل الله له، وعتابه في الأعمى في سورة عبس كل ذلك وغيره أكبر دليل على إعجاز القرآن وأنه لا ينسب إلا إلى الله جل وعلا.

هـ – التحدي ومراحله:

مدخل:

إن التحدي: وهو: إظهار قوة المتحدي وتأكيد دعواه بيان عجز المتحدّى أي أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة[19] فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن القرآن الكريم ليس من نسج النبي محمد صلى الله عليه وسلم فضلا عن غيره ولا علمه إياه بشر قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوحَينَآ إِلَيكَ رُوحٗا مِّن أَمرِنَا مَا كُنتَ تَدرِي مَا ٱلكِتَٰبُ وَلَا ٱلإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلنَٰهُ نُورٗا نَّهدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِن عِبَادِنَا ..... ﴾ الشورى: ٥٢

[17] والتوسع انظر: مفاتيح الغيب للرازي جـ2 ص117
[18] الإعجاز العلمي للدكتور عبدالله المصلح ص28 باختصار
[19] مدخل الدراسات القرآنية، ص30 بتصرف

قال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتلُواْ مِن قَبلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذٗا لَّٱرتَابَ ٱلمُبطِلُونَ٤٨ ﴾ العنكبوت: ٤٨

قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَولُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَولِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَولِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلعَٰلَمِينَ٤٣ ﴾الحاقة:٤٠– ٤٣

قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾ الشعراء: ١٩٢–١٩٥

قال تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلمِهِۦ وَٱلمَلَٰٓئِكَةُ يَشهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا١٦٦ ﴾ النساء:١٦٦

قال تعالى ﴿ وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّهُم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلحِدُونَ إِلَيهِ أَعجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ ﴾ النحل:١٠٣

إن توقف النبي أحيانا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان لأدل دليل على أنه ليس من عنده، وإنما هو مبلغ (رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة) ومفسر يلتمس الدلالات ويأخذ بأرفق احتمالاتها، ومن ذلك مثلا:

1. لما هلك رأس المنافقين عبد الله بن أبي كفنه في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه فقال له عمر: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال: إنما خيرني ربي فقال: ﴿ ٱستَغفِر لَهُم أَو لَا تَستَغفِر لَهُم إِن تَستَغفِر لَهُم سَبعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغفِرَ ٱللَّهُ لَهُم ذَٰلِكَ بِأَنَّهُم كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهدِي ٱلقَومَ ٱلفَٰسِقِينَ٨٠﴾ التوبة: ٨٠

وسأزيده على السبعين وصلى عليه، فأنزل الله ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره، فترك الصلاة عليهم[20]

وفعله هذا كان على ظاهر النص– قبل النص الصريح– لأن العطف بأو يتحمل أن يكون للتسوية لا للتخير، كما أن صيغة العدد تتحمل أن تكون للمبالغة لا للتحديد، وكلاهما احتمال قوى، إلا أن معنى

[20] الحديث متفق عليه

التخبير والتحديد آت على أصل الوضع، وعلى مقتضى كرم الطبع فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر فقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرا له فسلك أقر بهما إلى الكرم والرحمة[21]

2. ولما نزل قوله﴿ خُذِ ٱلعَفوَ وَأۡمُرۡ بِٱلعُرۡفِ وَأَعرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ١٩٩ ﴾ الأعراف: ١٩٩ قال ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم: فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عن من ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك.

وفي رواية يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل، فصعد ثم نزل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصفع عمن ظلمك وأن تعطي من حرمك وتصل من قطعك[22]

3. وفي قضية المحاسبة على النيات، كان موقفه من أظهر الأدلة على انه مبلغ وشارح وواسطة لشرح ما غمض على الناس بواسطة الوحي، وذلك لما نزل قوله جل وعلا ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ﴾ البقرة: ٢٨٤

أنزعج الصحابة انزعاجاً شديداً وشق عليهم وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء من حركات القلوب وخطراتها، فقالوا يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ .....﴾ البقرة: ٢٨٦

فعلموا حينئذ أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وما كان من العزائم المستقرة لا على الخواطر والأماني بغير اختيار فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم الخطأ وأزال الاشتباه من فوره، لكنه كان مثلهم ينتظرتأويلها، ولذا جاء حرف التراخي﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾ القيامة: ١٩، فهو صلى الله عليه وسلم ليس ممن تستخفه الآمال فيجرى مع الخيال، فإنه حتى بعد النبوة وإنزال الوحي ما كان يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظا لديه قال تعالى﴿وَلَئِن شِئۡنَا

[21] النباء العظيم لمحمد عبد الله دارز ص29/28 بتصرف
[22] انظر: فتح الباب لابن حجر ج8 ص156

لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧ الإسراء: ٨٦ – ٨٧

كما أنه ما كان يطمع أن يكون نبياً يوحي إليه قال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ .....﴾[23] القصص: ٨٦

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن هذا القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إنه من الله تعالي أصالة وإنما هو مبلغ فقط ما كان حديثاً يفترى ولا بعض الأقاويل فما تقوله ولا افتراه، وإن أكثر معجزات الأنبياء حسية كعصا موسى ويده والقمل والجراد والضفادع، وإحياء الموتى لعيسى وإبراء الأكمه والأبرص وكناقة ثمود لنبي الله صالح وكتسخير الجن والطير والريح وإسالة عين القطر لداوود وسليمان عليهما السلام[24]

وشأن المعجزات الحسية أن توجه إلى قوم يكثر فيهم قلة الحياء ويتصفون بالبلادة ليؤمنوا بطريق المحسوس لا بالنظر والتفكر والاعتبار والنظر بعين البصيرة لا البصر.

وأما والمعجزة العقلية فهي موجهة إلى قوم عرفوا بالذكاء والنبوغ ودقة الفهم ليدركوا حجة الله ومن حكمة الله تعالى أن جعل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عقلية لا حسية لأن رسالته لجميع الثقلين وهي خاتمة الرسالات، وبما أن المعجزة الحسية لا يؤمن بها إلا من رآها في زمانها ومكانها فإن العقلية صالحة في كل زمان ومكان.

فمعجزات الأنبياء انقرضت بانقراض عصرها، أما معجزات محمد فهي مستمرة إلى يوم القيامة وهي مخترقة للحواجز إخبارا بالماضي وتنبئاً بالمستقبل وتحدياً بالبلاغة والإعجاز وبإيجاز مع جودة السبك.

إن العرب كانوا قبيل بعثة محمد وعهد النبوة وقد وصلت فصاحتهم إلى القمة وتربعت بلاغتهم على عرش الذروة، فحينها نزل بها وبأساليبها قالوا ﴿..... لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ ﴾ الأنفال: ٣١

[23] النبأ العظيم ص31 بإختصار
[24] انظر: مناهل العرفان جـ1 ص75 بتصرف

وظنوه من أول وهلة أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو أن واحدا من البشر علمه إياه أو أنه توصل إلى بعض المحفوظات القديمة (أساطير الأولين)﴿..... وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾ الفرقان:٥

أو أنه تدارس مع أحد الناس (وليقولوا درست) (وأعانه عليه قوم آخرون)

ثم روحوا عن أنفسهم ليتسلوا بانتظار اعتراء الطبع الإنساني من الفتور والسآمة والملل بعد الاستمرار والتراجع بعد الاستقرار، والاضطراب بعد القوة والنزول بعد العلو ..﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ ﴾الطور :٣٠

ننتظر به صنوف الدهر، فيموت كما هلك الشعراء قبله فنستريح من شعره المزعج فإنه قد سفه آلهتنا ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ ﴾ الصافات: ٣٦

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ..... ﴾ الطور: ٣٣

فاستمر الأمر وطال الانتظار، والقرآن يتنزل وينزل بسور طوال وقصار: فإذا هو قيل غير قيل الكلام وطبع غير طبع الأجسام، وديباجة و براعات استهلال كالسماء في استوائها وارتطموا بكلام وأسلوب حيرهم بدءاً وعاقبة، ومن هنا بدأ التحدي على ثلاثة مراحل:

و المراحل الثلاثة هي المشهورة، إلا أن فخر الدين الرازي يراها أربعة وأن المرحلة الأولى:

هي[25] ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ.....﴾القصص: ٤٩

– **قلت:** وليس بظاهر لدرجة كافية، فإن النص يتكلم في أنهم استغربوا وحجدوا كون الوحي الذي جاء به ليس كمثل وحي موسى فالقرآن ليس كالتوراة، ثم إن وجه استدلاله تطرق إليه الاحتمال، فهل التوراة معجز كما القرآن؟ وبعض العلماء أيضاً جعل مراحل التحدي أربعة.

مراحل التحدي أربعة:

1. دعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله

[25] انظر مفاتيح الغيب جـ2 ص118

2. ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله
3. ثم دعاهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله
4. ثم بسورة واحدة من مثله[26]

وعلى كل فالمشهور المراحل الثلاث: 1- مثله 2- عشر سور مثله 3- سورة من مثله فهو:

1. تحداهم أن يأتوا بمثله، وطاولهم في المعارضة فانهزموا أمام تحديه فأعلنوا عجزهم وانسحبوا ضمنا من قولهم السالف(لو نشاء لقنا مثل هذا...) فقال جل وعلا: ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ ﴾ الطور: ٣٤

بل أحالهم أن يستعينوا بما شاءوا من الجن والإنس فليأتوا على ذلك مجتمعين﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾ الإسراء: ٨٨

كأنه قال: حتى لو تعاونتم مع الجن للإتيان بمثله لما استطعتم معارضته بمثله أبداً مع أنكم لستم ملزمين بالحكمة ولا بالحقيقة بل نظما وأسلوبا فقط، وذلك إمعانا في التحدي وتنزلا مع الخصم (فتبا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق وزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم افتراه على الله واختلقه من نفسه)[27]لأنه معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، فهم كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله[28] فلم يحاولوا حتى يحفظوا ماء وجوههم لانهم أدركوا أنهم لا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، فلما عجزوا عن ذلك.

2. تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثل سوره وسجل عليهم التحدي مرة أخرى بأقل من النصف والثلث بل بعشر سور: وترك لهم الاختيار أمن القصار أو من الطوال﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ ﴾ هود: ١٣

فقد قالوا مرارا وتكرارا إن هذا القرآن مفترى فتحداهم إذاً أن يفتروا عشر سور كسوره وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء[29] وهنا أيضا صمتوا مع حرصهم الشديد على إبطال دعوة محمد صلى الله

[26] النبأ العظيم ص104
[27] انظر : تفسير الكريم الرحمن للسعدي جـ3 ص131
[28] معالم التنزيل للبغوي جـ5 ص126
[29] الظلال لسيد قطب جـ3 ص1860 التحرير جـ1 ص85

عليه وسلم ودعواه بأي حال من الأحوال فإن إتيانهم بعشر سور كان كافيا في تكذيبه وأدعى في تفريق أصحابه وتمزيق صفهم وإفساد أمرهم بدلا من الحروب الطاحنة وإنفاق الأموال وإزهاق النفوس، ثم تنزل معهم وبالغ في التحدي فبلغ أقصاه لإقامة الحجة عليهم وهي المرحلة الثالثة والأخيرة وليس بعد الثالثة من شيء.

3. تحداهم ان يأتوا بسورة واحدة من مثله ولو قصيرة كالكوثر والعصر فقال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ ﴾ يونس: ٣٨

وقال ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ..... ﴾ البقرة: ٢٣

ومصطلح كلمة (سورة) وهي ثلاثة آيات فما فوق معلوما عندهم وشائع حتى عند الكفار والمشركين إذ لا يكون التحدي إلا باسم معلوم المسمى والمقدار عندهم وقت التحدي[30]

والمتأمل في التعقيبات على التحدي يجد أنه في سورة البقرة قال: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) إنباء بالغيب لما سيكون عليه حالهم من العجز الشنيع بعدما قال: وادعوا شهداء كم من دون الله ان كنتم صدقين أي هاتوا سورة وادعوا لجنة التحكيم منكم ومع ذلك فإنكم لن تفعلوا وفي سورة هود تحداهم أن يأتوا بعشر سورة ثم عقب بقوله ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ هود: ١٤

وفي سورة الإسراء قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾ الإسراء: ٨٨

وأي تحد بعد ما قال:﴿..... وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ٢٣ ﴾ البقرة: ٢٣

ثم قال﴿ ..... وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ ﴾ هود: ١٣

فظل يتحداهم (ثلاثة وعشرون عاما) ويدعوهم صباحاً ومساء أن يعارضوه إن استطاعوا ولو بآيات يسيرة مع أنهم أشد الناس أنفة وأكثرهم مفاخرة فثبت عجزهم ولم يحاولوا المعارضة فجنحوا للسب والشتم والقتال، وأكد القرآن التحدي بجميع مراحله الثلاثة: فإن لم تفعلوا ماضياً ولن تفعلوا مستقبلاً فاستسلموا وآمنوا وإلا فاتقوا النار وقد وجبت لمن حاد الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى فاتبع غير سبيل المؤمنين وظل

[30] في رحاب التفسير لعبد الحميد كشك جـ1 ص122 باختصار

التحدي ساري المفعول في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزوله وما بعد ذلك، فإن التحدي عجيب والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة[31] وآخر التسجيل أنهم لن يفعلوا ذلك أبد، وهذه معجزة غيبة قائمة بذاتها.

فمن كان يعرف سيرة القوم وبيئة العرب يومها يدرك أنهم كانوا على أهبة استعداد للمعارضة والمقارعة لو كان ذلك في نولهم، فإنهم قبيل البعثة قد بلغوا أوج الكمال في تهذيب اللغة وجمع شتات لهجاتها من خلال أسواق الأدب واجتماع المفاخرة بالشعر والنثر والخطب وانتهت القيادة ووصلت الريادة في إدراك الكلام والإيجاز والبيان إلى قريش وقد نزل القرآن بلغتها وأساليبها في مرامي الكلام ومكوناته ومع توفر الدواعي وما من الحمية والكبرياء لم يجدوا مسلكها للمعارضة فانسحبوا إلى معركة المقارعة وهي الأسهل ولا يزال القرآن يتحدى ويتحدى بجميع وجوه الإعجاز﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ .....﴾ فصلت: ٥٣

فلما أعجزتهم المعارضة قالوا ﴿ .... لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ فصلت: ٢٦

وأي غلبة؟ أبعدم السماع أم باللغو تكون الغلبة؟!

وهذا منطق العاجز الذي لا يعترف بعجزه[32]

وتحدي فارتاب كل مريب	أو يبقى مع السيول الغثاء
وأطاعت لأمره العرب العر	باء والجاهلية الجهلاء
أمع الصبح للنجوم تجل	أم مع الشمس للظلام بقاء
أعجز الإنس آية منه والجن	فهلا تأتي بها البلغاء
كل يوم يهدى إلى سامعيه	معجزات من لفظه القراء
رق لفظا وراق معنى فجاءت	في حلاها وحليها الخنساء

[31] الظلال جـ1 ص49 بتصرف
[32] انظر: مدخل الدراسات القرآنية

كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء

فأطالوا فيه التردد والريب فقالوا سحر وقالوا افتراء[33]

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ..... ﴾ يونس: ٣٩

أما الجان فقد انسحبوا من أول وهلة سمعوه من فم النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ .....﴾ الأحقاف: ٢٩

ولم يقولوا لا تسمعوا لهذا القرآن، قال تعالى ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ ...﴾ الجن:١-٢

والأغرب من أمر الإنس أنهم لما عجزوا قالوا: ﴿ ....ۖ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ ﴾ الأنبياء:٥

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ ..... ﴾ العنكبوت: ٥٠

فرد عليهم المولى: (أولم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فإن المعجزات كامنة في الوحي الذي يتلى عليهم وهم عنه معرضون .

أي أنهم قد عجزوا عجزا مطلقاً في الكم والكيف.

فانظر أي إلهاب وأي استفزاز، فلو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وتذرعوا بوسائل

1. أ يخادعونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلا إلى دينهم ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ ﴾ الإسراء ٧٣-٧٤

2. أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ ﴾ الإسراء:٩٠-٩٣

[33] أنظر: الهمزية للإمام البوصيري

3. أم يتواصون بمقاطعته ويحبس الزاد عنه ومن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعا أو يسلموه [34]

4. أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دون المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم[35]

5. أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم.

6. أم يخططون مكرا فيحسبونه في القيد أو يجرحونه جراحة لا يقوم معها أو يصفونه تصفية جسدية أو يخرجونه نفياً مؤبداً؟ وبكل قال جماعة، فسجل الله كيدهم[36] ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾ الأنفال: ٣٠

[34] وخبر الصحيفة في الصحيحين
[35] وهذا أيضاً في البخاري
[36] النبأ العظيم ص110 بتصرف